**قطنة الزلابية :فتح آفاق جديدة**

في قلب وادي رم، هذا المشهد الصحراوي الساحر في جنوب الأردن المعروف برماله الحمراء الواسعة ومنحدراته الشاهقة ونقوشه الصخرية القديمة، تقع قرية الديسة الصغيرة .هنا التقيت قطنة، المعروفة أيضًا بأم ليث، وهي امرأة بدوية مميزة برؤيتها وعزيمتها التي غيرت ليس فقط حياتها الشخصية، بل أيضًا حياة العديد من النساء في مجتمعها .رحلتها هي قصة صمود وعمل شاق وإيمان راسخ بقوة النساء على إحداث التغيير.

**الوصول إلى جمعية سيدات الديسة**

عندما وصلت إلى الجمعية التي تقودها قطنة، كانت الأجواء مليئة بالحركة والنشاط .النساء كن مشغولات بتحضير الغرف لاستقبال الضيوف .في هذه الأيام، يُقام سباق للهجن في وادي رم، وقطنة تستعد لاستقبال زوار من السعودية لاحقًا .على الرغم من جدول أعمالها المزدحم، خصصت لي وقتًا للحديث معها بكل كرم.

عند المدخل، يوجد متجر مميز يعرض ثمار عمل النساء :مجوهرات مصنوعة بدقة، وأحزمة مطرزة، وأوانٍ فخارية، وكنوز يدوية أخرى .كل قطعة تعكس ثقافة النساء وإبداعهن وصمودهن.

جلسنا مع النساء لتناول وجبة فطور لذيذة مكونة من شاي بدوي، وخبز طازج، وطماطم مقلية، وزيتون من حديقة قطنة .كانت اللوحات المعلقة على الجدران تصور مشاهد من الحكايات البدوية، مما أضفى جوًا دافئًا ومُرحبًا .تأثرت بلطفهن وكرم ضيافتهن الذي قدموه بسخاء.

**المرأة الأولى**

بعد تناول الإفطار، انتقلنا إلى غرفة هادئة مليئة بآلات الخياطة، حيث بدأنا حديثنا.

قطنة، امرأة تبلغ من العمر 60 عامًا، تنحدر من قرية وادي رم .متزوجة وأم لثمانية أطفال، وهي رائدة في العديد من الجوانب .كانت أول امرأة من وادي رم تلتحق بالجامعة وتخدم في الجيش، متخطية الحواجز التي كانت تقيد إمكانيات النساء البدويات .وفي عام2010 ، أصبحت أيضًا أول امرأة في جنوب الأردن تؤسس جمعية، وهي جمعية سيدات الديسة، التي أصبحت الآن دائرة تعاون ضمن.URI MENA

تقول قطنة" :أرى نفسي أمًا ليس فقط لأطفالي، بل أيضًا لنساء مجتمعي ."وتضيف أنها تجد السعادة في مساعدة النساء وعائلاتهن.

تسألني قطنة إن كنت أرغب في سماع قصة تأسيس الجمعية .بالطبع، أود ذلك!

بعد إتمام خدمتها العسكرية، فكرت قطنة في كيفية مساعدة النساء العاطلات عن العمل والمحرومات في منطقتها .الحياة بالنسبة للمرأة البدوية مليئة بالتحديات - ليس فقط لأن العثور على عمل في الأردن صعب، بل لأن التقاليد الثقافية غالبًا ما تثنيهن عن العمل خارج منازلهن أو قراهن .وهذا يجعل العديد منهن يعانين من عوائق اجتماعية ومالية .عازمة على إحداث تغيير، قررت قطنة اتخاذ خطوة عملية.

قبل وجود الجمعية، لم يكن هناك مكان في الديسة أو وادي رم تجتمع فيه النساء .لذلك، في البداية، فتحت قطنة منزلها الخاص لاستضافة النساء من قريتها والمناطق المجاورة .وفي عام2010 ، أسست رسميًا جمعية سيدات الديسة، لتكون مكانًا يمكن للنساء فيه الاجتماع وتعلم مهارات جديدة ودعم بعضهن البعض .في البداية، كانت رسوم العضوية 250 دينارًا أردنيًا .واليوم أصبحت 310 دنانير - تُدفع مرة واحدة مع إمكانية التقسيط للنساء اللواتي يحتجن لذلك.

لم يكن تأسيس الجمعية أمرًا سهلًا .لم توافق العديد من العائلات البدوية التقليدية على فكرة تجمع النساء خارج منازلهن .كما أن المبنى الأول للجمعية كان في حالة سيئة - حيث كان يفتقر إلى النوافذ والأبواب، وكان يُستخدم حتى كمأوى للحيوانات .لكن قطنة لم تستسلم .بمساعدة مدير من سلطة منطقة العقبة الاقتصادية الخاصة(ASEZA) ، تمكنت من إتمام بناء المبنى.

**تمكين النساء من خلال الحرف اليدوية**

ركزت الجمعية في بداياتها على تعليم النساء الحرف اليدوية، مثل صناعة الفخار، التي يمكنهن بيعها للسياح .وكانت أول دورة تدريبية تضم 12 امرأة، تعلمن مهارات صناعة الفخار وكيفية تدريب أخريات في المجتمع ليصبحن مضاعِفات للتأثير .ومع مرور الوقت، وسّعت قطنة نطاق عمل الجمعية، مما أتاح للنساء العمل في مشاريع من منازلهن، بما يتماشى مع تقاليد العائلات البدوية.

قدمت قطنة مقترحات للحكومة لتمويل مشاريع صغيرة للنساء، شملت صناعة المجوهرات والفخار والمشاريع الزراعية مثل تربية الدجاج لإنتاج البيض .كما استكشفت بعض النساء فرصًا في سياحة الهجن .وكان بإمكان النساء تقديم أفكار مشاريعهن للجمعية والحصول على قروض بدون فوائد تتراوح بين 500 إلى 2000 دينار أردني .وكانت قطنة تتابع شخصيًا تقدم كل مشروع شهريًا.

على مر السنين، حظيت الجمعية بدعم من عدة مؤسسات .على سبيل المثال، قدمت مؤسسة الملكة رانيا دعمًا للجمعية من خلال توفير آلات خياطة لـ 40 امرأة .وتم توزيع هذه الآلات على المتدربات بعد إتمامهن تدريب الخياطة، مما مكنهن من بدء مشاريعهن المنزلية وتحقيق دخل مستدام.

وبالرغم من التقاليد الثقافية التي تثني النساء عن المشاركة في قطاع السياحة، أدخلت قطنة أنشطة مثل رواية القصص، والطهي التقليدي، وورش عمل صناعة الفخار للزوار، مما خلق فرصًا للنساء لقيادة هذه التجارب مباشرة في مركز الجمعية.

**توسيع التأثير**

كانت العواصف الرملية المتكررة، وظروف الطقس الصعبة، والانقطاعات المتكررة للكهرباء من التحديات الأخرى في وادي رم .ولمواجهة ذلك، ساعدت قطنة العائلات والأعمال على تأمين قروض بدون فوائد لتركيب 210 لوحات شمسية، مما عاد بالنفع على المخيمات السياحية والمنازل على حد سواء.

التعليم يمثل أيضًا أولوية لقطنة .ومع معاناة العديد من العائلات في المنطقة من تغطية تكاليف التعليم العالي لأبنائهم، قدمت الجمعية قروضًا بقيمة 500 دينار أردني للشباب في المجتمع، لمساعدتهم على الالتحاق بالجامعات .وكانت هذه القروض تُسدد عندما يجد الطلاب عملًا بعد التخرج.

كما بدأت الجمعية بتثقيف الأهالي حول صحة الأطفال وأهمية توفير بيئات آمنة وداعمة لهم، مع التركيز بشكل خاص على الصحة النفسية للأطفال النازحين، مثل اللاجئين السوريين.

وسّعت قطنة تأثير الجمعية أيضًا من خلال تدريب النساء على زراعة النباتات الطبية والطبيعية المهددة بالانقراض في البيوت البلاستيكية، مما عزز الاستدامة البيئية وساهم في توليد دخل إضافي .ومن أبرز هذه الجهود مهرجان الغضا، الذي أقيم تحت رعاية الأميرة بسمة بنت علي، والذي سلط الضوء على أهمية زراعة النباتات المهددة والحفاظ عليها.

وفي عام2023 ، استقبلت الجمعية زيارة من الملك والملكة، اللذين موّلا بناء مبنى جديد يضم مطبخًا كبيرًا وورشة عمل للفخار، حيث يمكن للسياح تعلم مهارات الطهي التقليدي وصناعة الفخار.
امتد تأثير الجمعية إلى ما هو أبعد من المجتمع المحلي .فبعد الحروب في سوريا واليمن، قدمت قطنة وفريقها الدعم للاجئين، مما ضمن استمرار جمعية سيدات الديسة كمورد حيوي للمحتاجين.

**تأملات شخصية**

عندما أسأل قطنة كيف تمكنت من تحقيق كل هذا بينما كانت تربي عائلتها، تضحك .وتقول إن دراستها في الجامعة بعمان كانت ممكنة فقط بفضل دعم والديها وتشجيعهما لها .أما نجاح الجمعية فتعود بفضله إلى زوجها، الذي يشغل منصبًا مؤثرًا في إحدى الوزارات الحكومية، لدعمه خلال الأيام الأولى للجمعية .ومع ذلك، تعترف بأن الأمر لم يكن دائمًا سهلاً .ففي بعض الأحيان، كان أطفالها يشعرون أن الجمعية تأخذها منهم، لكنها كانت تدرك أن عملها يحدث فرقًا دائمًا.

تتأمل قطنة رحلتها وتشارك ذكرى مؤثرة من وقتها في الجامعة بعمان .أخبرها الكثير من الناس هناك أن البدو لا يمنحون النساء أي فرص للنجاح .أحزنتها كلماتهم، لكنها قررت بدلًا من الاستسلام أن تثبت خطأهم .في ذلك الوقت، كانت معظم

النساء البدويات يتزوجن بين سن 14 و .17ورغم دعم أسرتها لدراستها، كانت والدتها تذكرها أحيانًا بضرورة التفكير في الزواج .حتى أن أختها الصغرى تزوجت بينما كانت قطنة في سنتها الأولى في الجامعة .لكن قطنة كانت مصممة على إكمال دراستها أولاً .اليوم، تشير قطنة إلى أن مواقف الرجال قد تغيرت، وأن سن الزواج للنساء لم يعد مقيدًا كما كان في السابق، وأن المزيد من العائلات تعطي الأولوية لتعليم بناتها، رغم أن ذلك لا يزال يختلف من عائلة إلى أخرى.

**النجاحات والتحديات**

أسأل قطنة ما إذا كانت قد تلقت دعمًا من محيطها بشكل عام أم واجهت انتقادات ومعارضة.
تقول إنه في البداية، كان بعض الناس يشككون في مشروعها، لكنها" كسبت ثقتهم بمرور الوقت ومع زيادة النشاط".

سماح، المترجمة، تضحك وتلتفت إلي" :أؤكد لك أن *الجميع* هنا يثق بقطنة "!وعادةً ما يكون الآباء والإخوة هم من يجلبون زوجاتهم وأخواتهم إلى الجمعية .رأوا أن قطنة تساعد النساء على إنشاء مشاريعهن وأعمالهن الصغيرة، مما يولد دخلًا إضافيًا لأسرهن .هذه النتائج الواضحة جعلتهم يغيرون مواقفهم، واليوم أصبحوا جميعًا يثقون بقطنة ويشجعون النساء على الانضمام للجمعية.

عندما أسأل قطنة إذا ما كانت هناك لحظات صعبة أثناء تأسيس الجمعية، تتذكر وقتًا صعبًا للغاية عندما قدمت أول مقترح مشروع لها إلى الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية .(USAID) ذهبت إلى مكتبهم، حيث نظر الموظفون إلى المقترح وقالوا بازدراء" :هذا لا شيء "!كانت هذه أول مرة تقدم فيها قطنة مقترح مشروع رسمي إلى منظمة دولية .قالوا لها إنها تملك أسبوعًا واحدًا فقط لإعادة كتابة المقترح .حزينة ومحطمة القلب، بكت بعد مغادرتها المكتب .لكنها، بدلًا من الاستسلام، أعادت كتابة المقترح في غضون ثلاثة أيام فقط، وعادت إلى المكتب وقدمت نسخة محسنة بكثير .تفاجأ الموظفون بمستوى التحسين، أجروا بعض المكالمات الهاتفية، وفجأة تمت الموافقة على المشروع !حصلت الجمعية على 45,000 دينار أردني لتمويل ورشة الفخار .كانت تلك الأيام صعبة جدًا على قطنة، لكنها الآن تضحك عندما تتذكرها.

حتى بعد أن أصبحت الجمعية راسخة، لم تنتهِ التحديات .أحيانًا، كانت النساء يعدن إلى منازلهن بعد الجلسات التدريبية مرهقات جدًا .وكان هذا يدفع أزواجهن إلى تثبيطهن عن حضور جلسات أخرى .لذلك، كانت قطنة تزور هؤلاء الرجال شخصيًا، وتشرح لهم أهمية الجمعية وكيف تساعد الأسر ماديًا .كما كانت تدعوهم لزيارة المركز بأنفسهم لرؤيته.

**إرث دائم**

يرن هاتف قطنة، مما يشير إلى أن وقتنا معًا قد شارف على الانتهاء.
أسألها" :ما الذي يجعلك سعيدة؟"
تبتسم قطنة وتجيب" :أشعر بالسعادة عندما أستطيع تقديم المال في نهاية الشهر للفقراء أو العاطلين عن العمل في مجتمعي . أكون سعيدة عندما أرى أطفالي وأحفادي سعداء ويحققون النجاح .وأسعد أيضًا عندما تتاح لي فرصة السفر".

مع اقتراب نهاية حديثنا، أطرح سؤالًا أخيرًا" :ما هي أحلامك للمستقبل؟"
بالنسبة لأولادها، تأمل قطنة أن يواصلوا العيش معًا والعمل كفريق واحد .كما تتمنى أن يرزق أحد أبنائها، الذي تزوج منذ ست سنوات ولم يُنجب بعد، بطفل.
أما لجمعيتها، فتتطلع إلى رؤية المزيد والمزيد من النساء يشاركن في نجاحها ونموها، وأن تتمكن الجمعية من إقامة تعاون مع منظمات دولية لتوسيع نطاق تأثيرها.
وللعالم، تحمل قطنة أعمق أمنياتها في السلام .يؤلمها رؤية معاناة النساء والأطفال بسبب الحروب .تأمل أن يتمكن الناس من جميع الخلفيات والأديان من العيش بسلام معًا.

تلتفت قطنة إلى سماح، المترجمة - شابة بدوية من منطقة الديسة تتابع حاليًا دراستها في مرحلة الماجستير بجامعة معان .كانت سماح جزءًا من الجمعية منذ أن كانت في الرابعة عشرة من عمرها .بنظرة فخر، تقول قطنة" :أرى في سماح قائدة مستقبلية لمشاريع الجمعية، مثل مبادرة' بدويات 'التي تدعم الأعمال المنزلية لـ 76امرأة من وادي رم".

تبتسم سماح وتلتفت إلي، مضيفةً" :قطنة كانت دائمًا تدعمني وتشجعني كثيرًا - تمامًا مثل الأم".